

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 19

الأستاذة: حميد الفاتحي

المحاضرة رقم: 7

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2020-2021
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: حميد الفاتحي
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 7

سادسا: العلاقات الثقافية والروحية بين المغرب وبلاد السودان الغربي

هناك مسألة أساسية أخرى هي أن التجارة لم تجلب غير السلع، وإنما نقلت معها الأفكار، والقيم، والحضارة عموما، ومن بين ما يسترعي نظر الزائر المطلع في أقطار إفريقيا الغربية اليوم، تشابه عناصر عدة من ثقافتها مع ثقافة "بلاد المغرب". وهو تشابه يشمل عادات اللباس والأكل والعمارة والدين والفكر إلخ... حقيقة إن كثيرا من هذه الجوانب الحضارية تعرضت لقليل أو كثير من التغيير، بفعل اندماجها في البيئة المحلية وتأثرها بمكونات جديدة؛ بيد أن تفحصها عن قرب يكشف عن طابعها المغربي¹. ولعل الحياة الدينية والفكرية بتلك الدول تعكس أكثر من غيرها من تلك الملامح المغربية، على الرغم مما أصابها من تبدل نتيجة لتوالي العصور، ولاحتكاكها بغيرها من المقومات الأصلية والوافدة².

وشملت التأثيرات المغربية في بلاد السودان الجانب الديني والفكري بحيث اعتنق عدد مهم من أهل السودان الإسلام، وتمذهبوا بالمذاهب السائدة ببلدان المغرب، مع ما كان لذلك من تأثير على :
- السياسة الداخلية والخارجية للدول المحلية، من طريقة التعامل مع السكان المسلمين والأرواحيين وطبيعة الروابط مع دول شمال الصحراء.

- الحياة اليومية للأفراد والجماعات، من سلوك ديني وعادات اجتماعية، إلخ...
- اقتباس أهل السودان الثقافة المقترنة بالإسلام، وبمن حملها إليهم من المغاربة؛ فكتبوا باللغة العربية وبالخط المغربي، ونهلوا من ثقافة المذهب المالكي عبر تداول كتبه، والرحلة إلى مراكزه، واستقدام رجاله وأعلامه.
فكان أن ولدت بالسودان الغربي ثقافة زنجية إسلامية، شديدة التأثير ببلاد المغرب مظهرها وجوهرا³.

ففي القرن السابع الميلادي، وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد المغرب وتوغلت بعيدا في عمق الصحراء، فكان ذلك إيذانا ببداية عصر جديد من المبادلات والتأثيرات بين البلدان المتاخمة للصحراء. فعلى مدى تسعة قرون أمنت عبور البضائع والهجرات والسفارات. ومع هذا وذاك تسربت العقائد والمذاهب والمعارف والتقنيات والمحاصيل، مع ما صحب ذلك من تأثير إيجابي على الكيانات السياسية والبنى السوسيو اقتصادية. وقد لا نغالي إذا قلنا بأن العلاقات العابرة للصحراء هي العنصر المحرك الذي جعل من العصر الوسيط عصرا ذهبيا في

¹ - العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، ص2.

² - زكري دراماني - إيسوفو، الإسلام كنظام اجتماعي في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، تاريخ إفريقيا العام، م3، ص127. العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، ص2.

³ - إيسوفو، الإسلام كنظام اجتماعي في إفريقيا، ص6.

مجموع مناطقنا. وانتهت هذه المرحلة مع نهاية القرن السادس عشر الذي يعتبر نقطة تحول حاسمة في تاريخ العلاقات المغربية السودانية؛ إذ أدت الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي إلى إحداث شرح في تلك العلاقات، التي كانت فيما قبل على أسس ووسائل سلمية. وصار الوجود المغربي في السودان الغربي منافسا من قبل الأوروبيين. وهي منافسة تعدت ما هو اقتصادي إلى رغبة هؤلاء في نشر المسيحية والثقافة المقترنة بها بين السودان، بعد أن كان الإسلام هو الدين السماوي الوحيد بالمنطقة⁴.

وإذا سلمنا بثنائية التجارة والإسلام في إفريقيا الصحراوية والسودانية، وهي ثنائية تقوم على أساس عمل التاجر من أجل نشر دينه، لضمان أمنه وأسواق وامتيازات جديدة، فمن المفترض أن يكون الخوارج هم رواد الأسلمة في الصحراء الأطلسية والوسطى. ومنذ القرن 3هـ/10م مارس سكان كوار مسلمون يمارسون التجارة مع بلاد السودان. وبالنتيجة أبان الإباضية عن حماس في الدعوة إلى الإسلام بالقدر الذي أبانوه في تنظيم تجارة القوافل. وبفضل بني مدرار انتشر الإسلام في بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة وملتونة التي كانت تضرب بنواحي سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة⁵.

ويمكن الجزم بأن التأثير المغربي على بلاد السودان الغربي الوسيط مس الجانبين المذهبي والروحي؛ فبرز على مستوى الشعائر والاحتفالات الدينية، وعلى مستوى المذاهب التي تداولها المغاربة، وخصوصا مذهب مالك الذي تعلق به السودان منذ أن أشاعه المرابطون. كل ذلك أضفى على حياة المجتمعات المحلية طابعا من التجانس. ولعل أهم خصوصيات الممارسة الدينية لدى السودان، تشبثهم بالإسلام، وبعض رواسب الديانات التقليدية المحلية⁶. واقترنت حياة السودان الروحية بما نخلوه من الحركة الفكرية ببلدان المغرب عبر قنوات متعددة كانتقل العلماء والطلاب والكتب بين ضفتي الصحراء، فكان ذلك أهم روافد الفكر السوداني في العصر الوسيط.

ودخلت العلاقات المغربية التاريخ الحديث والمعاصر من الجانب الروحي منعطفًا آخر حيث كان للتصوف الحظ الأوفر في ترسيخ قواعد الإسلام وتجديده والوقوف ضد خصومه في إفريقيا جنوب الصحراء، وكان للطرق الصوفية المغربية إشعاع وحضور في خصوصا في السودان الغربي حيث أصبح للزوايا القادرية، والشاذلية، والتجانية أثر بالغ مد الإشعاع الثقافي الروحي المغربي إلى ما وراء الصحراء، وفي تجديد الإسلام ومحاربة الوثنية والاستعمار في بلدان حوضي السنغال والنيجر⁷.

⁴ - نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، ص299. العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي، ج1، صص141.143.

⁶ - نفسه، ج1، صص312-313.

⁷ - أحمد الأزمي، الإشعاع الصوفي المغربي في إفريقيا جنوب الصحراء خلال التاريخ الحديث والمعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، 2013م، ص5.